الحلقة الرابعة عشرة

طاهر الزمخشري

ربما كان الأستاذ الأديب والشاعر طاهر زمخشري ظريف ظرفاء عصره.. هو أول (فنان شامل) تعرفه بلادنا في القرن العشرين، فقد كان صحفياً ترأس تحرير صحيفة «البلاد السعودية» بعد أن ترك رئاستها عميد رؤساء تحريرها الأستاذ عبدالله عريف، وكان كاتباً يكتب المقالة والقصة والرواية.. وإذاعياً يخطط للإذاعة ويسهم في إدارتها، ويكتب الكثير من برامجها في نشئتها بل ويقدم بعضها، وشاعراً غنائياً تغنى بأغنياته كبار المطربين والمطربات في الداخل والخارج بل ولحن بعضاً من تلك الأغنيات وأسهم في تلحين البعض الآخر منها.. وشاعراً رومانسياً فياضاً سلساً عذباً لم يجاره أحد في حجم إنتاجه الشعري سوى شاعر مكة الكبير السيد محمد حسن فقي، الذي مات قبيل أعوام قليلة عن عشر مجلدات.. تمثل أعماله الشعرية الكاملة.

وقد شغل الأستاذ طاهر الناس بهذا التعدد الفريد والجميل والمثير في «نسيج شخصيته».. بشعره، وظُرفه وأغنياته، وسفاراته الثقافية للقاهرة وتونس وبيروت، وبمآسيه المتلاحقة.. التي ما كان يتغلب على إحداها إلا وتلاحقه الأخرى.. حتى بدا لي - أحياناً -

كما لو أن شعره الذي توازعته دواوينه العشرون ليس إلا قصيدة واحدة.. «ملحمة واحدة».. تروي مآسيه مع الأيام وصروف الدهر وتباريح الليالي، وأن ما خرج عن تلك الملحمة من قصائد.. بدت لي كما لو أنها استراحات خضراء وسط لهيب أيامه.. يفيق فيها لنفسه ولدوره ولحضوره كشاعر يعيش حياة وأحداث أمته.

ولعل رائعته التي جاءت بعنوان«حطام قيثارة».. في واحد من أخريات دواوينه وهو «الشراع الرفاف».. تلخص موقفه الإجمالي من مآسيه الطويلة المتعاقبة عندما قال:

مهما أراق دمي في الشجو إعصار
لسوف تبلغ بي للقصد أقدارُ
وقد قطعت على الصبر الجميل مدى
فلم يطل في الطريق الوعر مشوار
ضاع الشباب، ولم أدرك لبانته
ومن عزائمه في النفس تيار
به أهيم على الدنيا وفي كبدي
حرائق نارها للناس أشعار

.. إلى أن قال:

ولي فؤاد على الأشجان خفقته
تشدو، وترجّع بالأصداء أسحار
إذا الزمان تحداه وطاوله
فالحد من صبره ماضٍ وبتارُ

يلقى القضاءَ ولا يخشى مضاربه
لأنها في رقاب الخلق أقدار
تجري الليالي بها في ظهر مركبة
لها شراعان إقبال وإدبار
فما تبسم ميسور لغبطته
إلا وداهمه بالضر إعسار

.. إلى أن يحدد موقفه من النوائب قائلاً:

يا مترع الكأس لي صابا يمزقني
زدني تجدني وفي جنبيَّ جبار
عاني وكابد ما باحت سرائره
وللواعج في جنبيه إعصار
قطع إذا ما شئت من أوصاله مزقاً
فإنها للهوى الصدَّاح مزمار

قبيل الحرب العالمية الأولى وربما في سنة قيامها عام ١٩١٤م ولد الأستاذ طاهر زمخشري.. والتحق بمدرسة الفلاح بمكة، وبعد أن أنهى دراسته بها.. لم يتمكن من مواصلة تعليمه الجامعي كبقية المتفوقين من زملائه ممن كانت تبتعثهم مدارس الفلاح على نفقتها إلى الهند.. لقلته من جانب، ولمسؤوليته تجاه والده ووالدته وبقية أسرته من جانب آخر.. فكانت تلك أول الغصص في حياته، التي حملته للخروج بحثاً عن عمل يعيش منه وينفق به على الأسرة التي لم يكن لها سواه، فلم يجد عملاً في العاصمة مكة آنذاك.. ولكنه

وجد عملاً في المدينة المنورة.. فسافر إليها ليعمل مدرساً بـ «دار الأيتام»، وهناك التقى بالأستاذ «الزيدان» معلم الصبيان.. الفخور بمهنته، فكان من عجيب الصدف.. أن يلمع الشابان فيما بعد.. ويصبحا علمان من أعلام التاريخ والأدب والشعر في بلادنا. وكما قدم «الزيدان» إلى مكة للعمل سكرتيراً لدى شيخ مشايخ الجاوة.. عاد الزمخشري إليها للعمل في مطبعة الحكومة التي كانت تتولى إصدار أولى الصحف السعودية: صحيفة «أم القرى».. في الوقت الذي كان عصفور الشعر قد بدأ تغريده على استحياء في داخله، ليختطفه الشيخ عباس قطان أشهر وأول رؤساء بلدية العاصمة.. ليعمل سكرتيراً له وللبلدية، ثم لِيُنتدب إلى بلدية الرياض.. في معية أول رؤساء بلدياتها الشيخ محمود قطان، ولكنه لم يبق بها إلا لشهور.. ليعود منها إلى العمل في الإدارة العامة للجمارك بوزارة المالية في مكة، ثم ليجد نفسه بعد ذلك الترحال الوظيفي ولأول مرة في حياته ككاتب وأديب وشاعر.. مع تأسيس «الإذاعة السعودية» الأولى في «جبل هندي».. ليعمل في أي شيء وفي كل شيء إلى جوار مديريها الأولين: «محمد الشورى» و«إبراهيم أمين فودة».. ولتبدأ مواهبه الإذاعية والإعلامية بصورة عامة في الظهور والإعلان عن نفسها عبر تلك السنوات، في وقت كان «الشاعر» فيه قد أخذ ينتشر ويلمع.. بل ويتقدم الصفوف لاستقبال وتحية عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين ورئيس اللجنة الثقافية التابعة لجامعة الدول العربية.. عند قدومه للمملكة (عام ١٩٥٤م)، وزيارته للحرمين الشريفين.. ليقول له في مستهل قصيدته:

تمدُّ الدراري بالسنى حين تسفر

وتبهر أرباب النهى حين تجهرُ

وتطلع «بالأسفار» في كل مشرق

صحائفها تزهو بما أنت تنشر

ففي كل لون من بيانك روضة

بدائعها فيْنٌ ظليل معطر

.. فكان أبرز ما حفظه له تاريخ تلك المرحلة (الإذاعية)، هو برنامجه للأطفال.. الشائق والجميل، الذي عرفه المستمعون عند ظهوره في مكة واستمراره.. ولمعانه في جدة.. باسم «بابا طاهر»، وكأنه الموازي لأشهر برامج الأطفال العربية من القاهرة آنذاك: «بابا شارو».. والذي كان يقدمه الإذاعي المصري اللامع الأستاذ أحمد محمد محمود شعبان.

لقد كان.. من طرائف المصادفات حقاً.. أن ينسى المستمعون هنا وهناك اسْميّ الإعلاميين الكبيرين.. فلا يذكرونهما إلا بـ «بابا شارو» هناك.. وبـ «بابا طاهر» هنا، ليصبح هذا الاسم فيما بعد.. عنواناً للمحبة والحنان، وللبهجة والظرف الذي كان يحملهم «بابا طاهر» في قلبه ويسير بهم بين الناس، ولكل الناس.. رغم ما غصت به حياته من قبل، وما ستغُص به من بعد.. من هموم وأحزان وويلات.

* * *

ربما كان مرض والدته، وربما كان حزنه العاصف عليها.. وما كان يؤول إليه حالها، وربما كان فعل الواشين والحاسدين الذين تكاثروا حوله.. أو كل ذلك معاً.. هو الذي جعله يصعِّد من خلافه مع «الإذاعة».. لا ليغادرها فحسب.. بل ويغادر الوطن كله على أول طائرة إلى القاهرة: ليصور ذلك الذي اضطُر إليه في قصيدته «عذارى النيل» قائلاً:

ركبت متون الجو لا عن لذاذة
ولكن فراراً من لظى متراكب
لظى، والشقاء المر يوري زناده
أغالبه، والعسف لي منه غالبي
تلاحقني الويلاتُ، تكوي أضلعي
وما هي إلا ثلة من أقاربي

.. وفي القاهرة انكب على علاج والدته.. الذي رأى الأطباء ضرورة دخولها إلى مستشفى «المجاذيب». فكان دخولها إلى ذلك المستشفى عناءاً.. وكان علاجها عذاباً، فكانت رؤيتها حرقةً.. كما كان الابتعاد عنها جحيماً.. فكان العذاب يحاصره بلهيبه، وجمره أينما كان وحيثما ذهب.. ليتخلل ذلك العذاب معظم قصائده التي كتبها في تلك الفترة.. والتي قال في واحدة منها:

حنانيك أمي لا عقوقٌ ولا نكرُ
ولكنها الآلام في قبضتي سِفر
قرأت به الآيات تفري حشاشتي
ويعيش بها طرفي ويُطوى بها العمرُ

فمن مقلتي الدمع السخين سحائباً
على الخد يهميها فؤاد هو البحر
براكينُ من نار يؤججها الأسى
وثوراتُ ملتاعٍ يدوّي بها الصدر
حنانيك أمي، فالهموم تلاحقت
ولولا البلاء المر ما مُيّز الفكر
أهاض جناحي مذ أصبت بلوثة
فضاع بها منك التودد والبِرُ
وخلاّك رهن القيد تهذين ليس لي
سوى أنّة المذبوح لاح له القبر
وما القبر عندي غير سجنك ينطوي
عليك، كما يُطوى بأحشائنا السِّرُّ

.. إلى أن قال في ختامها:

وإن كان فن الطب قصّر عامداً
إلى الله أشكوه . له النهي والأمر

.. فكان الله بها وبه رحيماً.. عندما امتدت يد القدر إليها لتنهي عذابها وعذابه، فيواريها القبر.. ويبدأ في تحسس طريقه للخروج من لهيب تلك الأحزان.. والعودة إلى القاهرة بناسها وحياتها ونجومها في الأدب والسياسة والإعلام والفن ليكتب قصيدته الجميلة «بين الحرم والهرم» التي لحنها الموسيقار الأستاذ محمود

الشريف وشدت بها من إذاعة صوت العرب المطربة العربية السورية «نازك»، والتي يقول فيها:

الروابي الخضر في سفح الهرم
ومجالي الوُرق عند الملتزم
والشذا المعطار من وادي الحرم
والصوت الساحر من عذب النغم
تتناجى طرباً في فجر عيد
فيرد الكون من عذب النشيد
ومغاني النيل حول الحرم
وأسود البيد عند الهرم

بل ويكتب بعدها وقبلها عشرات القصائد عن مصر وأدبائها وفنانيها وأفلامها، وعن النيل وضفافه وفيضانه، وعن تونس وثائرته الشابة ابنة الثامنة عشر عاماً أو جان دارك العرب «ملك بشخرون» التي فقدت حياتها.. من أجل حرية تونس، وعن فلسطين والجامعة وعن السودان وأحلام وحدة واديه.. وهو يقول:

فمصر لحن له السودان رجع صدىً
وأنتمو في دَرَاك المجد سِيَّانِ
وأنتمو إخوة والنيل خير أب
وكم بدافقه ريٌّ لظمآنِ
لكم بشطيه أفياء معطرة
ومن شذا عطره أفراح نشوانِ

فإن صدحتُ بناديكم فلا عجب
أني طروب وهذا الصفو أشجاني
كم لي بمكة ألحان مرجعة
وعند واديكمو أصداء ألحاني
ولي بسفح «النقا» أيكٌ نعمتُ به
لكنني في هواكم مدنف فاني

.. لقد شكلت تلك القصائد ديوانه الخامس «أنفاس الربيع» الذي عاد به بعد تلك الغيبة، والذي لم ينس وهو يكتبه أن يهديه إلى «مؤسس المدارس الفلاحية» الحاج محمد علي زينل: عرفاناً بفضله وتقديراً لجهوده.. إذ لولا «مدرسة الفلاح» لما كان هذا الأديب الشاعر الذي اسمه طاهر زمخشري.. ولولاها لما كان هذا الإذاعي الإعلامي الذي عرف بين الناس بـ «بابا طاهر».

* * *

عاد إلى القاهرة ثانية أو ثالثة أو عاشرة.. فقد أحبها وأحب نيلها وحياتها وتلك الأرض الرحبة التي توفرها لمواهبه المتعددة كاتباً وشاعراً وفناناً.. حتى قيل عنه بأنه قطرة تذوب في كأس مصر، وهو ما سيقال عنه بعد أن أخذ يتردد على «تونس» في السبعينات وما بعدها من القرن الماضي.. بينما رأى فيه الأشقاء في مصر سفيراً للمثقفين السعوديين بينهم، لكن هذه الحياة القلقة اللامعة.. كان يتربص بها قدر ويلاته وأحزانه.. ليرمي بسهامه - هذه المرة - صدر زوجته وحبيبته وأم بناته الثلاث وابنه

الوحيد «فؤاد».. فتصاب بداء «السل» الذي كان في تلك الأيام داءً عضالاً.. ليبدأ ركضه في سبيل علاجها حائراً خائفاً من عودة تلك الليالي السوداء التي أمضاها إلى جوار والدته حتى فارقت الحياة، فلم يبق له سواها.. فهي أليفة روحه، وهي رفيقة دربه، وهي التي قطعت معه صخور طريق بداياته حتى أصبح هذا الأديب اللامع.. وهذا الشاعر الفنان.. وهذا الظريف الذي تتخاطفه المجالس، فكان يبكيها ويبكي نفسه بقلبه ودمعه وقلمه.. كما في قصيدته «صبراً»:

يقولون لي صبراً فقلت: وهل لها
سوى ذاك إن الصبر بالحر أخلقُ
عبرتُ خضماً من مصائب جُمِّعَتْ
ولي من جميل الصبر يا نفس زورق
وما بحت بالشكوى لأن عزائمي
تخوض المنايا لا تهاب وتَفْرقُ

وعندما اشتدت عليها العلة وشعر بأن الموت أخذ يقترب منها كان يواسيها بقصيدة «لا تخافي».. وهو يقول لها:

ليس لي بعدك في الدنيا بقاء
فاسلمي أو نسلم الروح سواءِ
لا تخافي صولة الداء فما
خفْت يوماً من تصاريف القضاءِ
فهي أثباج وبالصبر لنا
سفن تمخرها دون عناء

.. إلا أنها ماتت في النهاية، لتتركه وحيداً على جمر أحزانه من جديد.. فيصيح قائلاً:

غُلبت على أمري وأصبحتُ ليس لي
سواك، وحتى أنتِ ضمتكِ أكفانُ
وثارت شجوني دون أن ألقى آسياً
وقد كنت لي الآسي وجدّي وسنانُ
تذوبين في كفي والسن ضاحك
وتهصرك الأدواء والصوت مرنانُ
تذوبين لا أدري وفيك ابتسامة
يشع سناها وهي للموت عنوانُ
فأهفو إليها، والحنان يهزني
وأرجع عنها والخوالج بركانُ
وأسأل نفسي: ما دهاها فلم تعد
تكفكف دمعي، والمدامع طوفانُ
وأسأل من حولي: أنامت فقيل لي:
نعم إنها نامت وأنك يقظان
فقلت: إذن سوّوا عليها غطاءها
ففي صدرها من وقدة الداء نيرانُ

ثم يذهب بعد أن وسدها القبر إلى بناته أو «شاربات الدمع» قائلاً:

يـا بـنـاتـي وحـسـبـكـن شـقـاءً
أنـنـي بـيـنـكـن أبـكـي شـبـابـي
عـجـبـاً لـلـزمـان يـنـحـر آمـا
لي، ويحتث خَطْـوَهُ في طِـلابي

في ليالي تلك الرحلة إلى القاهرة.. وقبل أن يشتد المرض على زوجته.. جاءت أيام الحج لتذكرهما بساعاته وأيامه فيشده الحنين.. إلى البيت والركن والمقام.. فيكتب رائعته «إلى المروتين» التي لحنها وتغنى بها الموسيقار الأستاذ طارق عبدالحكيم رحمه الله، والتي أحسب أنه يتوجب إعادة تسجيلها الآن بأحد الأصوات الغنائية الشابة خاصة وأنه قد مضى عليها قرابة نصف قرن من الزمان.. حتى غدت تراثاً فنياً يصعب أن يتكرر في لحنها.. كما في كلماتها التي ماتزال في ذاكرة الأجيال والزمخشري يقول:

«أهـيـمُ بـروحـي عـلـى الـرابـيـة
وعـنـد الـمـطـاف وفي الـمـروتـيـن
وأهـفـو إلى ذِكَـرٍ غـالـيـةً
لدى البيت والخيف والأخشبين
فـيـهـدر دمـعـي بـأمـاقـيـه
ويـجـري لظاها على الوجنتين
ويـصـرخ شـوقـي بـأعـمـاقـيـه
فـأرسـل مـن مـقـلـتـي دمعتين

* * *

في أوائل الخمسينات الميلادية تسلم الشيخ عبدالله بلخير المديرية العامة للإذاعة والصحافة والنشر.. فكان أول شيء سأل عنه هو: أين بابا طاهر..؟ ليستدعيه عن طريق السفارة السعودية بالقاهرة.. فيأتي.. ويعود إلى سابق مكانه ومكانته ليعمل مع نجم الإذاعة الصاعد آنذاك الأستاذ «عباس غزاوي».. فيحققان تلك النجاحات الإذاعية التي لم تسقط من ذاكرة الأجيال.. وليعاود بابا طاهر اتصاله بالفنانين.. والفنانات.. ويبدأ مرحلة جديدة من صداقتهم ورعايتهم والحنو عليهم والكتابة لهم.. حتى بلغت أغانيه لهم ثمانية عشر أغنية بين الفصحى والعامية، فلم يبق مطرب من مطربي ومطربات المملكة إلا وغنى من كلماته.. مع تلك الامتدادات العربية إلى «لبنان» و«تونس» التي حلت مع السبعينات محل القاهرة، فقد أحبه الأشقاء التوانسة كما أحبهم.. واختاروه كما اختارهم، ليكتب من تونس وعنها مجموعته الخضراء التي ضمت دواوينه الست الأخيرة: الأفق الأخضر، والشراع الرفاف، ومعازف الأشجان، وحقيبة الذكريات، ونافذة على القمر، وعبر الذكريات.. وليمنحه الزعيم التونسي الرئيس الحبيب بورقيبة «وسام الثقافة التونسي» عام ١٩٧٤م..

وعندما أنشأ الملك فهد جائزة الدولة التقديرية للآداب.. في أوائل الثمانينات من القرن الماضي، كان الأستاذ طاهر زمخشري أو بابا طاهر.. من بين ثلاثي الدفعة الثانية من الأدباء الذين تم اختيارهم لنيلها وهم الأستاذ أحمد عبدالغفور عطار والأمير عبدالله الفيصل، والأستاذ طاهر زمخشري.. الذي تم استدعاءه

من تونس لحضور حفل استلام الجائزة في الرياض، فكان جميلاً.. من قائد الطائرة التي عادت به من تونس.. أن يقيم حفلاً تكريمياً له على متن السحاب.. حيث ألقيت الكلمات من الطيار ومساعده.. وقُدمت له تورتة الجائزة التي شاركه فيها ركاب الطائرة جميعاً، ليقف بعد أيام في قاعة المؤتمرات بفندق «إنتركونتنتال» الرياض أمام الملك فهد.. في ليلة إعلان الجوائز وتسليمها.. وقد اقتعد كرسيه المتحرك بعد أن أضعفه مرض الفشل الكلوي الذي كان ختام ويلاته في الحياة ومعها منيباً عنه ابنه الدكتور فؤاد لإلقاء كلمته في ذلك الاحتفال الأدبي المهيب.. الذي كانت تنقله ميكرفونات الإذاعة وعدسات التلفزيون مباشرة إلى المشاهدين في أرجاء الوطن، فلم ينس في تلك الكلمة ما عرف وحفظ عنه من قفشات وسخريات و«خفة ظل».. ليقول عن نفسه في مطلعها: «إنني لست إلا كومة من الفحم سوداء، تلبس ثياباً بيضاء، وتقول شعراً قصائده حمراء وخضراء وصفراء».. لتضج القاعة بالتصفيق تحية وتقديراً وإكباراً له.

* * *

لقد كان رائعاً أن يحتفل الأدباء والمثقفون في إثنينية الشيخ عبدالمقصود خوجة.. بحصوله على الجائزة مساء السادس عشر من شهر شعبان من عام ١٤٠٥هـ الموافق للسادس من شهر مايو من عام ١٩٨٥م.. فكان لا يداني ذلك الاحتفال بقيمته وجماله وشخوص المتحدثين فيه من أعلام الفكر والأدب والشعر إلا احتفال الأسرة الفنية بـ «عميدها»، الذي اشترك في إعداده وإخراجه

ونفقته الفنانون الذين تغنوا بكلماته.. ليعيدوها على أسماعه في تلك الليلة الجميلة والفريدة من ليالي العمر والوفاء.

لقد أعطى الأستاذ طاهر زمخشري.. الحياة، كل حبه.. كل إخلاصه.. كل وفائه، فأعطاه الناس كل الحب.. وكل الإخلاص.. وكل الوفاء، ليبقى في تاريخ الحياة والناس.. صفحة لا تنسى.. وشمعة لا تنطفئ.